الجذور البريطانية الخالصة للمحافظين الجدد وما تحملها من دروس لمحافظي بريطانيا

مايكل غوف

لم يقم محافظو أمريكا الجدد باختراع الاستباق، ولا التعويل على الأجهزة الاستخباراتية، ولا فكرة «الحفاظ على الذات» والحاجة إلى «إنقاذ العالم» من الاستبداد تسويغاً للإقدام على شن ضربات استباقية.

ففي آب/ أغسطس 1807 أقدم وزير الخارجية البريطاني جورج كاننغ على توجيه ضربة استباقية جريئة. في ذلك الوقت، تصدت بريطانيا، وحدها، لنابليون بونابرت ومخططاته الرامية إلى فرض الهيمنة على أوربا. كان بونابرت هذا قد أبرم معاهدة مع آخر أعدائه في القارة، القيصر ألكسندر الأول Tsar Alexaner I، في تموز/ يوليو من ذلك العام. ومع إخضاع روسيا، وحدها بريطانيا بقيت واقفة في وجه الطاغية.

كان كاننغ بعيداً جداً عن النموذج التقليدي لوزير خارجية محافظ أوائل القرن التاسع عشر. لم يكن نبيل النسب كما لم يكن متحلياً بأي نعومة دبلوماسية. وبوصفه ابن ممثلة مسرحية وأستاذ جامعي سليط اللسان، كان يخزي كثيرين من قادة الحزب التقليديين. غير أن كاننغ كان أيضاً متمتعاً بعدد من المواهب العظيمة، وعلى رأسها ثقته بنفسه، بأمته، وبمبادئه، جنباً إلى جنب مع توفره على شبكة استخبارات من الطراز الأول.

أدرك كاننغ أن انهيار المعارضة القارية لنابليون كان قد أبقى بريطانيا في وضع فريد الهشاشة. وما لبث مدى هذه الهشاشة أن اتضح لوزير الخارجية في

غضون أيام قليلة حين أبلغته شبكة استخباراته بمضامين البروتوكولات السرية الملحقة بمعاهدة تيلسيت الفرنسية – الروسية.

كان القيصر قد وافق على الانضمام إلى «حصار» نابليون «القاري»، بإغلاق مرافئه في وجه التجارة البريطانية، مساهماً في إقامة حاجز أمام التجارة البريطانية من البحر الأدرياتيكي إلى بحر البلطيق. وما هو أسوأ، من وجهة النظر البريطانية، أن القيصر بات الآن مستعداً لوضع ثقله من أجل إمالة كفة الميزان أكثر فأكثر لغير صالح بريطانيا.

كانت روسيا ستبادر، فيما وراء الكواليس، إلى ممارسة الضغوط على البلدان الإسكندينافية المحايدة لدفعها إلى المشاركة في حصار بريطانيا. ولعل الأخطر من كل شيء هو أن القيصر وافق على ضرورة تمكين فرنسا من الاستيلاء على أسطول الدانمارك المحايدة، ذلك الأسطول الذي كان الثاني في العالم من حيث الضخامة بعد الأسطول البريطاني. طالب بونابرت بأن تؤول السيطرة على الأسطول الدانمركي إليه مباشرة. وإذا لم يسارع الدانماركيون إلى تلبية الطلب فقد كانت فرنسا ستبادر إلى الاستيلاء عليه، مدعومة بالتأييد الروسي القوي. أدرك كاننغ أن من شأن تمكن الفرنسيين من سلاح البحرية الدانمركي أن يفضي إلى تعريض سيادة بريطانيا على البحار، تلك السيادة التي تم الحصول عليها مقابل ثمن باهظ في معركة جبل طارق البحرية، لأخطار بالغة الجدية.

في مواجهة تهديد مباشر لأمن أمته ومصالحها التجارية، مسكوناً بهاجس المعلومات الاستخباراتية التي بينت أن طاغية معادياً عاكف على التخطيط لامتلاك أسلحة من شأنها أن تحدث خللاً في الميزان الاستراتيجي، وواعياً لحقيقة أن لا شيء غير الفعل يمكن أن يتمخض عن نتيجة في المعركة ضد طاغية مستبد، أصدر كاننغ أمراً قضى بشن هجوم استباقي.

في السابع والعشرين من آب/ أغسطس، قام أسطول بريطاني مؤلف من أكثر من أربعين سفينة بإنزال 27.000 جندي على شاطئ الدانمارك. وفيما كانت وحدات

الجيش تتقدم باتجاه كوبنهاغن، سارع سلاح البحرية إلى فرض الحصار على ميناء المدينة. طالبت القوات البريطانية بالاستسلام ووضع الأسطول الدانمركي تحت تصرفها. وحين رفض الدنمركيون الامتثال، بادرت بريطانيا إلى الهجوم. بعد معارك قتالية عنيفة ما لبث الدانماركيون أن سمحوا بخضوع سفنهم الراسية للسيطرة البريطانية.

بفضل تحركه السريع، كان كاننغ قد نجح في تمكين بريطانيا من تجنب خطر قاتل. كما كان قد أثبت أن نابليون كان في مواجهة خصم عنيد لا يُقهر متمثل ببريطانيا، خصم كان مستعداً لأن يُقْدم على كل ما هو مطلوب لإبقاء نار النضال ضد البونابرتية متقدة.

تعرض كاننغ للانتقاد من جانب المعارضة البرلمانية في أيامه على التصرف دون نُبل. كان المنتقدون يرون أنه قد انحدر إلى مستوى بونابرت. إضافة إلى تهمة التكافؤ الأخلاقي، تمت إثارة جملة من الشكوك حول توظيفه لأجهزة الاستخبارات. غير أن كاننغ فاز آخر المطاف. أما مولاه وصنيعته الكونت الرديف بالمرستون فقد أفحم مجلس العموم قائلاً إن «قانون الحفاظ على الذات هو الذي تلوذ به إنجلترا تسويغاً لإجراءاتها».

بمحافظته على موقع بريطانيا الاستراتيجي، تمكن كاننغ ليس فقط من إنقاذ البلاد، بل ومن رفع راية الحرية عالياً. ومع بقاء التفوق البحري البريطاني على حاله، سرعان ما استطاع كاننغ أن يندفع نحو تدخل آخر في آيبيريا، لإحباط خطط نابليون التوسعية في شبه الجزيرة.

لم يصبح إرسال قوات بريطانية بسرعة إلى البرتغال ممكناً إلا بفضل نجاح المهمة الدانمركية. ومن خلال التدخل البريطاني في شبه جزيرة آيبيريا بدأت عملية دحر نابليون وما لبثت الحرب أن نُقلت إلى أرضه. جرى التهليل لسرعة تدخل كاننغ في البرتغال، حتى من جانب خصومه في البرلمان، على أنه «تحرك جريء من أجل إنقاذ العالم».

لم يكن انقضاض بريطانيا على كوبنهاغن المناسبة الأخيرة التي أقدمت فيها دولة ديمقراطية على شن هجوم استباقي في الحرب ضد أحد الطغاة المستبدين، وسيلة لاستئصال الخطر من ناحية وللتمهيد للحل من ناحية أخرى.

ففي تموز/ يوليو 1940 ، بقيت بريطانيا وحدها في الميدان مرة أخرى. أدى انهيار المقاومة الفرنسية لهتلر إلى إبقاء ونستون تشيرتشل القائد الديمقراطي الوحيد المتصدي للفاشية. لقد كان في وضع بالغ الخطورة.

جاءت هزيمة فرنسا مصحوبة بدخول إيطاليا الحرب في صف النازيين. تعرض التحكم بالبحار، وهو أساس الوضع الاستراتيجي البريطاني، لقدر كبير وجدي من التهديد. إن البحر الأبيض المتوسط كان مسرحاً بالغ الهشاشة. فخط اتصال بريطانيا مع مصر، ومع كل من الهند والممتلكات، عبر قناة السويس، كان حيوياً بالنسبة إلى المجهود الحربي.

كان اجتماع القوتين البحريتين الألمانية والإيطالية بحد ذاته تهديداً كافياً للمصالح البريطانية. إلا أن انهيار فرنسا كان قد أحدث خللاً إضافياً في الميزان لغير صالح بريطانيا. بات زعماء فرنسا الآن أشد حرصاً على نسج علاقات جيدة مع المحور منهم على احترام أي تعهد لبريطانيا. كانت جميع الاحتمالات تشير إلى إمكانية إقدامهم على تسليم قواتهم البحرية المتوسطية إلى هتلر، أو على الإذعان لقيام المحور بالاستيلاء على سفنهم.

بداية جرَّبَ تشيرتشل الدبلوماسية لتجنب وقوع الكارثة. حاول إقناع الفرنسيين بدفع سفنهم إلى المياه البريطانية حفاظاً عليها. غير أن الحكومة الفرنسية الجديدة في فيشي سارعت إلى التعبير عن انحيازها إلى المحور. تم الإيعاز للبحرية الفرنسية، وكانت بأكثريتها راسية في شمال أفريقيا، بالإبحار للعودة إلى فرنسا، للوقوع في براثن المحور.

obeikandi.com

صمم تشرتشل على التحرك قبل أن يصبح التهديد أكبر. أبحرت قوة بحرية بريطانية إلى ميناء المرسى الكبير بالجزائر حيث كان التجمع الأكبر للسفن الفرنسية راسياً.

مرة أخرى، بنوع من اللفتة الدبلوماسية، حاول القائد البريطاني فتح باب التفاوض مع الأدميرال الفرنسي المسؤول ساعياً إلى إقناعه بالاستسلام، بالانتقال، أو بتدمير أسطوله. تواصل التفاوض الفرنسي ولكن سرعان ما تبين أن الفرنسيين لم يكونوا يريدون غير كسب الوقت. ففي حين كانت المداولات مستمرة، التقطت قيادة القوات البحرية إشارات فرنسية موجهة إلى قوات إضافية تتضمن أوامر الإبحار إلى الجزائر للاشتباك مع البريطانيين.

إن تصميم تشيرتشل على عدم جواز وقوع السفن الفرنسية بأيدي المحور كان واضحاً مثله مثل التحركات التي تعين على البحرية الملكية أن تُقْدم عليها في المرسى الكبير. عملية قصف مدمِّرة بدأت. وبعد استعراض نموذجي لمهارة المدفعية البريطانية، باتت الكتلة الرئيسية للأسطول الفرنسي عاجزة في المدى المنظور. التمس الفرنسيون وقفاً للعملية، والبريطانيون لانوا أملاً في تأمين الاستسلام وتقليص إراقة الدماء إلى الحدود الدنيا. غير أن التماس الفرنسيين لوقف النار كان خدعة، والسفن الفرنسية الباقية القادرة على الإبحار حاولت التحرك والانطلاق إلى عرض البحر. اضطرت القوات البريطانية لاستئناف هجومها والإجهاز على جزء كبير مما كان متبقياً من القوة الفرنسية.

وابل من الإدانات انهمر على تشيرتشل بسبب تحركاته من جانب الفرنسيين، الذين كان، قبل أسابيع قليلة، عاكفاً على خوض الحرب لإنقاذهم. وعلى الرغم من أن حكومة فيشي أمرت البوارج الحربية الباقية بالاشتباك مع البريطانيين حيثما استطاعت، فإن تلك كانت ضربة استطاعت بريطانيا تحملها، وخصوصاً لأن 84 بالمئة من قوة فرنسا البحرية كانت قد باتت مستأْصلة وغير مؤهلة للاستخدام من قبل الفاشيين أو حلفائهم لتهديد مصالح بريطانيا. لقد تم القضاء على تهديد بالغ الجدية. غير أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد.

في صيف 1940 كان ثمة توقع لدى كثيرين، ونوع من الخوف خصوصاً في الولايات المتحدة، حول احتمال اندحار بريطانيا قريباً أمام العدوان النازي. ساد على نطاق واسع نوع من التشكيك بمدى استعداد الحكومة البريطانية لتحمل ومتابعة القتال ضد الطغيان والاستبداد. جاءت عملية المرسى الكبير ليس فقط لتحييد التهديد الصادر عن الأسطول الفرنسي، بل ولإزالة جميع الشكوك حول تصميم تشيرتشل على مواصلة القتال. كان الرجل قد برهن على استعداده لمتابعة الحرب «مهما كان الثمن ورغم الصعوبات».

أطرى الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت ضربة تشيرتشل الجريئة وهلل لها بوصفها مساهمة في الدفاع عن أمريكا بالذات. أما الأمريكيون الذين كانوا قد ظنوا أن بريطانيا هشة أمام الاجتياح، أو قابلة للاستسلام فسارعوا إلى تغيير آرائهم وبات أسهل على الولايات المتحدة أن تبادر إلى تقديم الدعم المعنوي، المادي، بل والعسكري، لاحقاً، إلى بريطانيا في القتال ضد الفاشية.

إن ضربة استباقية، مؤهلة اليوم لتجنيد العديد من المحامين الدوليين لإدانتها الإجماعية، ساهمت في أننا نعيش الآن في عالم ما زال يجعل تطبيق القانون الدولي ممكناً.

إن ضربة التحالف بزعامة الولايات المتحدة الاستباقية الموجهة إلى العراق في 2003 وُصفت على أنها قطيعة مع الماضي، عملية ثورية مجسِّدة لمقاربة جديدة. عقيدة بوش، وضعها فريق ثوري متطرف، فريق المحافظين الجدد، الذين سعوا إلى قلب سنوات طويلة من الحكمة الموروثة في السياسة الخارجية رأساً على عقب. قد تكون الدعوة إلى الحرب العراقية متأثرة، دون شك، بمبادئ المحافظين الجدد، ولكن ليس ثمة، كما نستطيع أن نرى، أي جانب ثوري للمحاكمة الكامنة وراء الحرب. إنها حرب جرت وفق نمط تقليدي أرساه رجالات دولة بريطانيون في الماضي. وإذا كانت نزعة المحافظة الجديدة فلسفة تخص السياسة الخارجية، فإن لها جذوراً عميقة في نمط تفكير وممارسة الدولة البريطانية.

إن نزعة المحافظة الجديدة هي بالطبع، كما بات واضحاً من العديد من المقالات الأخرى المنشورة في هذا المجلد، أكثر بكثير من مجرد فن سياسة دولة وحكم. فتفكير أولئك الكُتّاب والساسة الذين باتوا يُعرفون بأنهم محافظون جدد يلامس جل مناحي ومجالات الممارسة السياسية التي يتعين على القادة الحديثين أن يتعاملوا معها. ولكن لدى محاكمة مدى صلاحية مبادئ المحافظين الجدد بالنسبة إلى دول غير الولايات المتحدة من المناسب تقويم مدى عمق جذر العديد من الرؤى المفضلة لدى المحافظين الجدد.

أعتقد أن المحافظة الجديدة تزود المحافظة البريطانية – والأوروبية – بأدلة قيمة حول كيفية التعامل مع تحديات العالم الحديث دون الإذعان إلى رد الفعل العاجز أو الديمقراطية الاجتماعية المساومة. إن المحافظة الجديدة موقف متناغم مع بيئة سياسية تكون فيها الديمقراطية الجماهيرية والتنوع المعرفي من الحقائق الراسخة، يطالب فيها الناخبون بحكم قوي ونمو اقتصادي، وتبرهن فيها الردود اليسارية على الحداثة أنها غير ملائمة. إنها تزود المحافظين أيضاً بسلّة حلول متجذرة تاريخياً وقوية فلسفياً لمشكلات بناء مجتمع قوي في مواجهة تهديد أبدي ومعارضة داخلية. وبهذه الصفة فإنها تتحدث مباشرة عن حاجات النزعة المحافظة البريطانية والأوروبية في القرن الحادي والعشرين.

غير أن من شأن عدم الاعتراف بوجود عوائق أمام تبني نمط تفكير المحافظين الجدد من جانب المحافظين البريطانيين والأوروبيين أن يكون تصرفاً ساذجاً. وبعض المقاومة لما يُتصور أنه فلسفة أمريكية خالصة يتجاوز الصعوبات الراهنة.

مما هو جوهري في المحافظة التقاط أن الردود السياسية التي نشأت وتطورت في بيئة محددة قد لا تُنقل إلى أمكنة أخرى بسهولة. [انظر مقالة جورج ول. المحرر]. في حين أن أحد أوهام الاشتراكية تمثل بالاعتقاد بأن المجتمعات يمكن، ويجب، قولبتها بما ينسجم مع نظرية كونية شاملة في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، يدرك المحافظون غريزياً أن القياس الواحد لا يناسب الجميع. لعل أساس عدم اطمئنان المحافظين بالسير قدماً على طريق الاندماج الأوروبي هو الشك إزاء الإيمان

بأن الحلول نفسها قابلة للتطبيع عبر قارة متنوعة. إن الأفكار التي تزدهر في بساتين الزيتون اليونانية ليست مرشحة لتمد جذوراً بالقدر نفسه من اليُسر، في غابات لاتفيا أو مدن يوركشير الجنوبية. بالطريقة ذاتها، من شأن افتراض إمكانية النقل المباشر لأنواع من المحافظة ازدهرت في التربة الأمريكية إلى بريطانيا أن يكون ساذجاً ومنافياً للسلوك المحافظ. ولأن أكثرية أولئك الذين باتوا يعرفون بأنهم محافظون جدد أمريكيون، ثمة قدر مفهوم من المقاومة في صفوف المحافظين البريطانيين للاعتقاد بوجود أشياء كثيرة يمكن تعلمها من فكر المحافظين الجدد. والصعوبات الحتمية التي واجهها التحالف في الحرب على الإرهاب زادت من حدة الخصومة بين البعض تجاه الفكر الأمريكي عموماً، وتجاه أولئك المعروفين بأنهم محافظون جدد خصوصاً.

غير أن ما تغفله مثل هذه الخصومة هي العلاقة المباشرة بين التفكير المعاصر للمحافظين الجدد وبين تقاليد بريطانيا السياسية الخاصة. لو كان كاننغ، بالمرستون، أو تشيرتشل على قيد الحياة اليوم لسارعوا إلى الإقرار بأن سياساتهم وخططهم منفَّذة بأيدي بول ولفوفيتز، دونالد رمسفلد وجورج بوش. لعل من الأكثر أهمية أنهم كانوا سيرون أن المبادئ التي اعتمدوها في قيادة بريطانيا باتت الآن معتمدة ومفعَّلة من جانب الولايات المتحدة.

لقد جادل الصحفي الليبرالي جوناثان فريدلاند Jonathan Freedland في كتابه استرجعوا الثورة بقوة قائلاً: «إن على البريطانيين أن يفهموا أن بُنى أمريكا السياسية وما يدعمها من أمزجة ديمقراطية صُنعت، جميعاً في المملكة المتحدة». وقد زعم أن السمات المميزة للحياة العامة الأمريكية كانت من ثمار فكر جون لوك وتوم بين Tom Paine. ثم أكد أن الوقت قد حان ليبادر البريطانيون إلى استعادة تراثهم والإمساك من جديد بشيء من الحركية الديمقراطية التي سبق للفلاسفة الإنجليز أن أضفوها على أمريكا إرثاً. وقد أشار فريدلاند إلى أن البريطانيين حين يتعلمون من أمريكا، إنما هم يتعلمون من ماضيهم بالذات. تلك هي القصة مع المحافظين الجدد.

❖ ❖ ❖

حين يصل الأمر إلى السياسة الخارجية نرى أن الرد المعاصر للمحافظين الجدد على العالم المضطرب يردد أصداء المقاربة المحافظة المتنورة لرجالات الدولة البريطانيين السابقين. ليس فقط من حيث الأفعال والتحركات بل وعلى مستوى المبادئ أيضاً.

يعكف المحافظون الجدد المعاصرون على صياغة فكرهم فيما يخص السياسة الخارجية بطريقة متميزة عن كل من السياسة الواقعية المتبرئة من المبادئ لدى المحافظين الآخرين من جهة، والليبرالية الطوباوية الحالمة من جهة ثانية. إنهم يسلمون، مثل أكثر أهل اليمين، بضرورة استخدام القوة لدى التعرض للتهديد، بحماقة التعامل مع القوى المعادية للديمقراطية بالقدر نفسه من اللباقة المعتمدة في التعامل مع القوى الساعية إلى إشاعة الديمقراطية، وبتعذر الاستغناء عن الدولة القومية كوحدة سياسية تجعل السلطة خاضعة للمحاسبة من ناحية وفعالة من ناحية ثانية.

في جميع هذه المناحي نجدهم مختلفين عن اليسار الطوباوي الحالم الذي يتوهم أن التفاوض خير بحد ذاته بدلاً من أن يكون سبيلاً إلى هدف، أن القوة غير مشروعة ما لم تكن متمتعة بمباركة دولية شاملة، أن الدولة القومية بنية هيكلية رجعية تقف حجر عثرة في طريق الإدارة التقدمية العابرة للحدود القومية، وأن الغرب إن هو إلا كيان قائم على نوع من المساومة الأخلاقية لا يحق له أن يعد قيمه متفوقة على قيم خصومه.

❖ ❖ ❖

أما النقطة التي يفترق عندها المحافظون الجدد عن واقعيي المحافظة التقليدية فمتمثلة بحرصهم على صيانة مبادئ التنوير الليبرالية في إدارة الشؤون الخارجية. يؤمن المحافظون الجدد بأن جزءاً مفتاحياً من الدفاع عن المصلحة القومية يجسده الدفاع عن قيم الديمقراطية لدى أمم الغرب.

لذا فإن المحافظين الجدد أكثر من الواقعيين المحافظين نزوعاً إلى إقرار عمليات التدخل لدعم القوى الديمقراطية أو التوجهات الليبرالية أو الحيلولة دون الفظاعات الاستبدادية. وفيما يقول الواقعيون إن مثل هذا التمسك وصفة للتطاول وانتهاك سيادة الدول، يرى المحافظون الجدد أن الغرب سيواجه عدداً أقل من التهديدات إذا ما اضطلع بدور راعي الديمقراطية في الخارج بدلاً من السماح للأعداء بالاحتشاد، وللأصدقاء بالتفرق فالتعرض للاستفراد، وللخصوم بشم رائحة الضعف. أضف إلى ذلك أن المحافظين الجدد يؤمنون بأن نجاة الأمة وقوتها تستندان إلى الأسس الأخلاقية. فتطهير السياسة الخارجية من الأخلاقية لن يكون خيانة لأنبل دوافع الغرب وحسب، بل سيشكل نسفاً لجملة مرتكزات حيويته المستمرة.

جملة هذه الأحاسيس الحدسية والدوافع المتجذرة متجلية بوضوح في أفعال رجالات دولة بريطانيين مثل كاننغ، بالمرستون، وتشيرتشل. وكما سبق لنا أن رأينا فإن الثلاثة، جميعاً، لم يترددوا في إصدار الأوامر القاضية بالاستخدام الجريء للقوة في معارك الحرب على الطغيان والاستبداد.

ضمن كاننغ أن تبقى بريطانيا، في السنوات التي أعقبت زوال نابليون، محتفظة بتفوقها العسكري ولا سيما من خلال اعتماد برنامج فعال على صعيد بناء البوارج الحربية. وقوة سلاح البحرية الملكية تم نشرها لخدمة قضية الحرية في العالم الجديد، حيث ساهمت السفن البريطانية في تمكين أمم أمريكا اللاتينية من خلع نير الحكم الاسباني المستبد والمتعسف. أما مبدأ مونرو، الذي أعلنت الولايات المتحدة بموجبه عن ضرورة إبقاء الأمريكتين في منأى عن الاستعمار الكولونيالي الأوربي، فلم يصبح ممكناً إلا بفضل القوة البحرية البريطانية.

وُظفت تلك القوة في دعم الليبرالية على القارة الأوربية، وأُرسل الأسطول البريطاني إلى لشبونة في 1823 لدعم عاهل البرتغال الدستوري في صراعه مع ابنه الأصغر المستبد المدعوم من جانب الرجعيين الفرنسيين.

ثم جاء مولى كاننغ، الكونت الرديف بالمرستون، ليستأنف المسيرة من النقطة التي كان ولي نعمته قد تركها فيها. فعلى امتداد حياته المهنية الطويلة في احتراف السياسة البريطانية، تلك الحياة التي نقلته من حزب المحافظين إلى حزب العمال فإلى رئاسة الوزارة، بقي الرجل رجل دولة متشدداً وقوياً إلى أقصى درجات التصور الممكنة. غير أن استعداده لنشر البوارج الحربية تعزيزاً لدبلوماسيته كان متواكباً مع رؤيا ليبرالية عدت قوة بريطانيا سلاحاً في خدمة الخير.

كان بالمرستون سعيداً بالتدخل في اسبانيا والبرتغال دعماً لملوك ليبراليين ضد عواهل مستبدين، بإحداث قعقعة السيوف فوق بلدان الأراضي المنخفضة لمساعدة الملكية الدستورية الوليدة في بلجيكا وتمكينها من ترسيخ أقدامها تحت مظلة جاراتها الأقوى، وبالتحرك الحازم في الشرق الأوسط ضد المشاغب المدعوم فرنسياً، محمد علي. وفي كل من هذه الحالات بقي بالمرستون حريصاً على المزاوجة بين نوع من التقويم المتشدد للمصلحة القومية البريطانية من جهة وانحياز عميق الجذور ضد الظلم والاضطهاد من جهة ثانية.

ما لبثت تلك المقاربة أن قادته إلى النزاع مع الولايات المتحدة حول إحدى النقاط، حيث شكل استخدام بالمرستون للقوة البحرية من أجل اعتراض الإتجار بالعبيد مساساً بالمصالح الأمريكية. إلا أن غريم بالمرستون الأكثر ثباتاً واطراداً تمثل بأستاذ السياسة الواقعية، الأمير كلمنس مترنيخ Clemens Metternich، ذلك الوزير الهابسبورغي المتألق. ففي حين كان بالمرستون مدافعاً دائماً عن الدول الصغرى، عن النظام البرلماني الليبرالي، وعن تحرير أوربا، كان مترنيخ نصيراً للأمر الواقع المتمثل بالنظام القديم، عدواً لليبرالية، صديقاً للاستبداد، وحاسباً بارداً لا يعرف معنى الرحمة لمصالح النمسا القومية. قد لا يكون مستغرباً، إذن، أنه كان واحداً ممن حظوا بإعجاب هنري كسنجر. أو أن نزعة الشك الكلبية القائمة على العقل البارد وحده لدى الدكتور كيسنجر عنت أن سياسته الخارجية أصبحت موضوعاً لانتقاد المحافظين الجدد.

كانت المقاربة التي تبناها بالمرستون وكانِنغ، بالطبع، نتاج موقع بريطانيا الاستراتيجي الخاص في القرن التاسع عشر. غير أن بريطانيا ظلت، حتى بعد فقدان الوضع المهيمن في القرن العشرين، تنتج قادة كانت مهارتهم السياسية راسخة الجذور في تراث كانِنغ وبالمرستون، ومتناغمة مع ما نطلق عليه الآن اسم المحافظة الجديدة.

يبرز ونستون تشيرتشل بروزاً غير عادي بوصفه زعيماً سياسياً تمتع برؤيا مكنته من المطالبة بالتحلي باليقظة إزاء أخطار باتت تهدد الحرية حين فضل آخرون تبني موقف الإنكار أو الاسترضاء. إن سجله الحافل في الثلاثينيات بوصفه منتقداً بعيد النظر للنازية وشجبه للتضحية بتشيكوسلوفاكيا في ميونيخ أكسباه احتقار واقعيي العصر المحافظين. إلا أن تشيرتشل أدرك، كما يفعل محافظو اليوم الجدد أيضاً، أن الغرب لا يستطيع أن يبقى متفرجاً حين يبادر الاستبداد إلى نشر جناحيه. فأي إخفاق في التصدي للعدوان لا يتمخض إلا عن تشجيع المعتدي الذي يتحرى الضعف والدسيسة في تقدمه. فقط دَعْمُ الديمقراطية، حيثما تعرضت للتهديد، يستطيع أن يوفر الأمن الفعلي. حتى بعد القتال جنباً إلى جنب مع روسيا ستالين لدحر النازية، كان تشيرتشل بين أوائل المحذرين من مخاطر الشيوعية العدوانية في خطابه المعروف عن الستار الحديدي.

غير أن هزيمة الشيوعية تعين عليها أن تنتظر رئاسة وزارة سياسية أخرى يوصي سجلها بوضعها في خانة المحافظين الجدد – إنها مارغريت تاتشر. ومع أن سجل الليدي تاتشر على صعيد السياسة الخارجية متميز بحوادث استرضاء غير قليلة، لعل أبرزها التنازلات الكامنة في الاتفاقية الإنجليزية – الإيرلندية المقدمة للإرهاب، والتسليم المتفاوض عليه لهونغ كونغ إلى الصين الشيوعية، فإن غرائزها الأساسية العميقة كانت محافظة جديدة. كلما استطاعت التغلب على، أو تحييد، مشورة وزارة الخارجية لديها، كانت تبدي تصميماً ساهم في دفع عجلة الحرية إلى الأمام.

شكلت حرب جزر الفوكلاند، وقد خيضت رغم محاولات وزير خارجيتها بالذات الرامية إلى تمكين الأرجنتين من الاستفادة من العدوان، نقطة انعطاف في

ثمانينيات القرن العشرين. شكلت دليلاً على تصميم جيل جديد من القادة في الغرب على الكفاح دفاعاً عن مصالحهم وقيمهم. تم رفع راية حق الشعوب في تقرير المصير فوق أرخبيل بعيد في أقاصي الزوايا الجنوبية للمحيط الأطلسي، فجرى توجيه رسالة صريحة إلى العالم كله. لم تكتف حرب الفوكلاند بإبراز نوع جديد من الثقة من جانب بريطانيا، بل وأدت أيضاً إلى تعجيل عملية انهيار الطغمة الدكتاتورية الأرجنتينية وإطلاق سيرورة الدومينو الهادئة في أمريكا الجنوبية، تلك السيرورة التي شهدت حلول سلسلة من الأنظمة الديمقراطية محل أشكال الحكم المتسلط.

على أهميتها، لم تكن حرب الفوكلاند، على أي حال، معركة العصر الفاصلة. إن الحرب ضد الشيوعية هي التي اضطلعت فيها مارغريت تاتشر بدور استثنائي الأهمية. في حين أن شخصيات سياسية بريطانية أخرى كانت ميالة إلى الغمز من قناة خطاب رونالد ريغان القائم على مقولة «إمبراطورية الشر» المعادية للشيوعية، كانت السيدة تاتشر ترى بوضوح حقيقة التهديد الأساسي العميق المتمثل بالشيوعية. أجازت سلسلة من فعاليات التضامن الرمزية مع القوى الديمقراطية في أوربا الشرقية، إذ أوفدت وزيراً لتقديم آيات احترامها أمام قبر القس البولوني المنشق الأب جيرزي بوبيوزسكو Jerzy Popieuszko الذي كانت قوات الأمن البولونية قد اغتالته. أيدت مشروع الرئيس ريغان القاضي بنشر صواريخ كروز وبيرشنغ في أوربا، في حدث انعطافي معبر عن تصميم الغرب على التعجيل بانهيار النظام الشيوعي. كذلك تصدت تاتشر لقوى الاسترضاء، للتكافؤ الأخلاقي – المعنوي، لأصحاب شعار رفاقة الطريق داخل بريطانيا، كل الوقت من منطلق السخرية المألوفة.

من المأساوي على أكثر من صعيد أن تكون الإدارة المحافظة التي حلت محل إدارتها قد بادرت إلى التخلي عن موقفها المبدئي من السياسة الخارجية. يبقى تاريخ السياسة المحافظة البريطانية في تسعينيات القرن العشرين زاخراً بالصفحات المظلمة. حملت آيات الاندفاع في طريق تقليص الإنفاق الدفاعي، الإخفاق في التصدي للإبادة في كل من البلقان وأفريقيا، والافتقار إلى البراعة في معالجة

موضوع هونغ كونغ، مجتمعة، رسالة لا لبس فيها تشي بالتعب، بالضعف، وبالانسحاب أو القعود. كانت رسالة لم تفد إلا في تشجيع نمو التهديدات الكوكبية التي نواجهها الآن.

إذا لم يفض التخلي عن مبادئ يمكن وصفها بالمحافظة الجديدة إلا إلى إقحام بريطانيا في بحر من المتاعب على صعيد السياسة الخارجية، بعد أن عيشت أحلى ساعات بريطانيا في السياسة الخارجية في ظل ألوان محافظة جديدة، فإن من المتوقع لصعود المحافظين الجدد في أمريكا أن يتواكب مع نوع من الإحياء والبعث لنمط تفكير مشابه في بريطانيا. غير أن اللافت هو أن قلة فقط من الساسة أو الكتّاب البريطانيين في صفوف اليمين مستعدة لتثبيت شارة أو شعار المحافظين الجدد على ياقات ستراتهم. أما أولئك المرشحون أكثر للتحدث بلغة المحافظين الجدد في بريطانيا المعاصرة فهم في صف اليسار، حيث يجري استخدام العبارة كشكولاً يتسع لجميع أشكال الشجب لأي محافظ معقول التشدد.

قد نكون مبالغين في المطالبة إذا توقعنا من العاملين في ميدان السياسة ممارسة الحساسية اللغوية والدقة التعبيرية في زحمة حمى المعركة الإيديولوجية، غير أن التشوش الذي يميز استهزاء كثيرين من اليسار بعبارة «محافظين جدد» يعني أنهم قد أفرغوها عملياً من كل معنى. أي أمريكي يكون أكثر من مؤيد معتدل للرئيس بوش يوصم بأنه محافظ جديد. ثمة أشخاص محافظون تقليديون لا يستسيغون بل ولديهم نفور إيجابي بالفعل إزاء تمسك المحافظين الجدد بتوسيع دائرة الديمقراطية، مثل صقر وزارة الخارجية جون بولتن، يُعدُّون محافظين جدد لا لشيء إلا لأنهم ليسوا على يسار الرئيس كلنتون. لقد أصبح استخدام عبارة المحافظة الجديدة مرادفة لعبارة محافظة متطرفة سمة مميزة للخطاب اليساري الراهن.

أقدم روبن كوك Robin Cook، مثلاً، على تحميل فريق من «المحافظين الجدد الأصوليين» مسؤولية الكارثة المقيمة في الشرق الأوسط في مقالة كتبها لجريدة الإندبندنت يوم 21/ أيار/ مايو/ 2004. سعى السيد كوك، نشداناً للتأثير البلاغي، إلى جمع كلمتين بُعْبُعَين في عبارة واحدة. من الواضح أنه لم يبال قط

obeikandi.com

بحقيقة أن من شبه المستحيل تصور ولو محافظ جديد واحد، أمريكي أو غير أمريكي، يكون أصولياً دينياً في الوقت نفسه – وإن كان هؤلاء الأصوليون طرفاً مهماً من أطراف الائتلاف السياسي للرئيس جورج دبليو. بوش. أولئك الساسة الأمريكيون الميالون إلى تبني نوع من القراءة الحرفية للنصوص المقدسة ينزعون إلى أن يكونوا محافظين من طينة مختلفة عن طينة المحافظين الجدد.

غير أن هذه اللونيات تتجاوز شخصيات مثل السيد كوك، ممن يهتمون أكثر بفعالية أي هجوم بدلاً من دقته. غير أن المفارقة هي أن سياسياً يسعد بإدانة الإدارة الأمريكية على عجزها عن تقدير نقاط الدبلوماسية الناعمة حق قدرها يكون هو نفسه أعمى إزاء التفاصيل، اللونيات، والأمور ذات الحساسية العالية.

مع أن للسيد كوك، كوزير خارجية سابق مخلوع ومعارض لحرب الخليج، مَوّالَه الخاص به يغنيه على هواه، فإنه بعيد جداً عن أن يكون وحده في ولعه الشديد باستخدام عبارة محافظة جديدة وصمة عار رائجة لوصف أي محافظ شب عن الطوق.

في نيسان/ ابريل 2004 أرسل ثلاثة من وزراء بلير السابقين: آلان ميلبورن Alan Milborn، ستفن بايرز Stephen Byers، وبيتر ماندلسن Peter Mandelson مقالة مشتركة إلى الغارديان دفاعاً عن الدستور الأوربي الجديد. وعلى الرغم من أن زخم كلامهم جاء منصباً كلياً على الوحدة الأوربية أو الاندماج الأوربي، والوزراء الثلاثة كانوا جميعاً، مؤيدين لدور بلير في الحرب العراقية، فإنهم اختاروا، دون تردد، أن يصفوا، بل ويدينوا، أي معارضة لمعاهدة الاتحاد الأوربي الجديدة على أنها معارضة «محافظة جديدة». من الواضح أن الثلاثة كانوا يشعرون بأن العبارة لا تقف عند الإيحاء بالتطرف فقط، بل وبأنها قادرة على توجيه نفخة كبريت إلى خصومهم. غير أن التهمة جاءت، على أي حال، في غير مكانها.

حاول الوزراء السابقون الثلاثة أن يجادلوا زاعمين أن معارضة المحافظين الجدد العدائية لدستور الاتحاد الأوربي، نابعة من النزعة الانعزالية. فخصوم المزيد من

الاندماج الأوربي، المحافظون الجدد، كانوا متهمين بأنهم يريدون «ترك البلقان يحترق، الحروب الأفريقية تستعر، والسلطة الفلسطينية تُحرم من المساعدة».

لا شيء يمنع وجود خصوم لدستور الاتحاد الأوربي ممن يريدون كل تلك الأشياء. غير أنهم ليسوا محافظين جدداً، بالتحديد، إذا كانوا يتبنون مثل هذا الموقف الانعزالي. فما يميز المحافظين الجدد هو استعدادهم للتدخل في حين يبقى الآخرون، يميناً ويساراً، ميالين إلى اختيار موقف المتفرج. المحافظة الجديدة والانعزالية متناقضتان تناقض النزعة النقدية والنزعة الجماعية، إذ نشأت الأولى في معارضة الثانية.

قد يكون تعريف المحافظة الجديدة غائماً في العديد من العقول البريطانية، إلا أن ما يساعد هذان المثالان على إلقاء الضوء عليه هو الطابع السُمّي للعبارة، بمقدار ما يتعلق الأمر بالفاعلين السياسيين على جبهة اليسار بالتأكيد.

مع أن هناك شيئاً من التهور والعسف في الأسلوب المعتمد لإضفاء الألوان المحافظة الجديدة على أي يميني يريد اليسارُ أبْلَسَتَه، فإن هناك أيضاً نوعاً من الحماس يصاحب هجمات اليسار على المحافظين الجدد، حماساً يتطلب التحليل.

على صفحات الغارديان والإندبندنت، أو في برامج البي. بي. سي. يتم التعامل مع المحافظة الجديدة على أنها ظاهرة فريدة من حيث إثارة القلق، ومع المحافظين الجدد على أنهم مخلوقات خطرة على نحو استثنائي.

❖ ❖ ❖

كانت إحدى اللازمات المتكررة متمثلة بإضفاء نوع من التأثير الخبيث في السياسة الأمريكية على عصابة محافظين جدد ذات سلسلة من الصفات المزعجة. [انظر مقالات بوت، بروكس، وموراففتشك. المحرر]. يُزعم أن المحافظين الجدد يتمتعون بممارسة قدر مفرط، وغير مستحق، من السلطة، أنهم يمارسونها في الخفاء، أنهم ينشطون مثل عصابة مافيا محكمة البناء، أنهم ضللوا وسائل

الإعلام، وأن لديهم جدول أعمال خفياً يقضي بوضع مصالح إسرائيل قبل مصالح أمريكا، أو قبل مصالح العالم كله في الحقيقة.

هذه التهم جميعها وُجهت من جانب البي. بي. سي. في حلقة خاصة بعنوان حزب الحرب من برنامج بانوراما عُرضت يوم 18 أيار/ مايو 2003. ومن نافل القول أنها جميعاً تنحرف انحرافاً خطراً يقربها من خطاب الماضي الانتقامي المعادي للسامية.

تزخر وسائل الإعلام بالاعتقاد بأن اليهود يمارسون قدراً غير معقول وغير مسوغ من السلطة والنفوذ، بأنهم «متلاحمون» في السعي إلى مصالحهم الخاصة، وبأنهم موالون لـ«شعبهم» في إسرائيل أكثر من البلد الذي يحملون جواز سفره. مثل هذا الاعتقاد اعتقاد معاد للسامية بامتياز، ومن شأن بعث مثل هذا التحامل القديم في التغطية الإعلامية لأخبار المحافظين الجدد أن يكون مصدر قَدْر استثنائي من القلق.

لعل أحد التوجهات الرئيسية الأخرى لمعاداة السامية هو الإصرار على أن اليهود يعيشون بشروط وضعها آخرون لهم في العصر الوسيط أخذ هذا التحامل شكل فرض الغيتوات (الأحياء المعزولة المغلقة). عاش اليهود على المصابرة ولكن في ظل شروط مرسومة في أمكنة أخرى. مازال التحامل حياً إلى يومنا عبر إصرار البعض بعناد، على أن اليهود يشغلون فضاءات خصصها لهم آخرون.

تحديداً، ثمة نزوع معين لدى البعض في جبهة اليسار إلى حصر التعاطف مع اليهود، أفراداً وقضايا، بأولئك الذين يؤيدون وضع اليهود كضحايا، متضرعين، أو حلفاء للحركات الثورية المتطرفة. أما حين يكون اليهود ناجحين، أقوياء الشخصية، واثقين بالذات، أو محافظين، وهذا أسوأ شيء، فإنهم ينتقلون، مجازياً، إلى ما وراء الحد الفاصل. يمكن رؤية بعض المعارضة المحمومة التي توحي بها نزعة المحافظة الجديدة على أنه غضب اليسار حين يجد شخصيات ثقافية يهودية، مثل نورمان بودهورتز أو بول ولفوفيتز، متبنية مواقف محافظة.

ولكن أشكال الشجب والاتهام الفعالة التي تستثيرها المحافظة الجديدة تتجاوز الحنق اليساري على أولئك الذين كانوا يُعَدُّون مضمونين سلفاً قد تجرؤوا على التفكير المستقل. فصفوف المحافظين الجدد تضم، آخر المطاف، عدداً كبيراً وكبيراً جداً من الشخصيات، بمن فيهم كاتب هذه السطور، التي تتبع عقائد غير العقيدة اليهودية. أما السبب العميق الكامن وراء استثارة المحافظة الجديدة مثل هذه المعارضة الضارية فهو مدى الصعوبة التي تسببها لليسار. إنها – المحافظة الجديدة – الخصم الإيديولوجي الأقوى الذي يواجهه اليسار اليوم.

تسوق المحافظة الجديدة تحدياً استثنائي القوة لليسار لأنها تجمع بين مناشدة المبادئ الأخلاقية من ناحية وبين صيغة محددة من صيغ فهم الطبيعة الإنسانية من ناحية ثانية. كان اليمين القديم يفهم الطبيعة الإنسانية، ولكنه غالباً ما كان ينحدر إلى مهاوي نزعة الشك الكلبية لدى صياغة الخطط والسياسات. أما اليسار الجديد فقد أقدم على طرح سياسات وخطط ملهمة، غير أنها ما لبثت أن أصبحت إما جامدة أو استبدادية لأنها أخفقت في أخذ الشخصية الفردية والواقع الاجتماعي بنظر الاعتبار.

في الشؤون الخارجية تتعالى المحافظة الجديدة، كما سبق أن قيل، على محدوديات الواقعية الكلبية القائمة على نزعة الشك والمثالية التعددية. فيما مضى كان اليسار قادراً على حرمان خيارات السياسة الخارجية المحافظة من المشروعية عبر القول بأن ساسة اليمين ظلوا حريصين، عن عمد، على التبرؤ من الأخلاق. بصراحة شديدة، كان سهلاً على اليسار لَعْنُ الحكومات المحافظة السابقة، مثل حكومتي نكسون وهيث، على التودد إلى أنظمة استبدادية «صديقة» مثل النظامين التشيلي والصيني. إن ممارسي سياسة خارجية محافظين مثل كيسنجر صاروا أهدافاً سهلة في النقاشات العامة، قابلين للتصوير الكاريكاتوري بسهولة بوصفهم أناساً يضعون النفط، صفقات الأسلحة، الزبائن الأثرياء، والاستقرار، قبل حقوق الإنسان والمبادئ السامية.

ولأن المحافظين الجدد يضعون حقوق الإنسان، الديمقراطية، والمبادئ الليبرالية في قلب رؤيتهم للسياسة الخارجية، استشاط اليساريون غضباً لأنهم لم يعودوا محتكرين لخطاب القيم.

ما يجعل هذه الخسارة ذات شأن بالنسبة إلى اليسار هو أن المحافظين الجدد يوفرون إطاراً للدفاع عن هذه القيم وتوسيعها، إطاراً لم تستطع نزعتهم المادية المثالوية، ولن تستطيع، أن توفره. فمن انهيار الاتحاد السوفييتي، إلى الإطاحة البطيئة بالنزعة التسلطية في أمريكا اللاتينية، كان قادة من اليمين، عبر إبداء التصميم والعمل في تحالفات مع دول قومية مستقلة، هم الذين فازوا بمكاسب ملموسة لصالح الحرية. أما اليسار فلا يطيق الضربتين التوأمين لضياع احتكار الموقع الأخلاقي الأعلى من جهة، وللبرهنة على أنه كان على خطأ في ميدان الممارسة العملية من جهة ثانية. لقد نجحت المحافظة الجديدة في تحقيق الأمرين، كليهما، مما يجعلها هدفاً لهجوم استثنائي السمية وفريد البشاعة. لا يستطيع اليسار أن يسمح لها بالسيادة.

ليس إصرار المحافظين الجدد على إدراج القيم المتنورة في صلب السياسة الخارجية إلا انعكاساً لجانب آخر، أعمق، من جوانب الرؤية المحافظة الجديدة، جانب يضع عقبة بالغة الصعوبة أمام اليسار. على نحو شبه بديهي، كانت للمحافظة الجديدة، تقليدياً، مشكلة مع الحداثة.

ظل السياسيون والمفكرون في ضفة اليمين يميلون إلى تفضيل الحنين الماضوي، النوستالجي، على النزعة التفاؤلية. ثمة كانت ريبة عميقة الجذور إزاء الديمقراطية لدى بعض أهل اليمين الأوربي، ممن كانوا يحاولون فرض قيود دستورية على أشكال التعبير عن الإرادة الشعبية. يمينيون آخرون بدوا مترددين وضبابيين بشأن النمو الاقتصادي، ولاسيما فيما يتعلق بتأثير تدمير النظام الرأسمالي الخلاق في الاستقرار الاجتماعي. وكان فريق ثالث من جبهة اليمين دائباً على التعبير عن عدم ارتياحه لنمو التنوع في المجتمعات الديمقراطية الحديثة، وخصوصاً عبر نشوء وتطور كيانات سياسية متعددة الأعراق. كل هذه التوجهات

أتاحت لليسار فرصة حصر اليمين في زاوية متطلعة إلى الخلف وتصوير المحافظين على أنهم ضعيفو التجهيز على صعيد التعامل مع تحديات المستقبل. غير أن المحافظين الجدد ليسوا متأثرين سلباً بالكثير من النواقص وأشكال العجز التي يواجهها يمينيون آخرون.

نشأت المحافظة الجديدة وتطورت، بوصفها فلسفة من ناحية وممارسة سياسية من ناحية ثانية، استجابة للديمقراطية والحداثة. إنها تهلل للاثنتين، على أنهما من ثمار الإبداع الإنساني، بدلاً من النظر إليهما بقلق مشحون بالكآبة.

ينهل المحافظون الجدد، كما سنرى، من معين حكمة الماضي في عملية إضفاء المعنى على التحديات الجديدة. غير أن في مزاج المحافظ الجديد وموقفه بالذات ثمة نوع من الارتياح إلى الديمقراطية يميزه (ها) عن غيره (ها) من معشر اليمين. إن ميزة فهم العالم الحديث تلك هي التي تجعل المحافظة الجديدة ليس فقط سلة ملائمة من المبادئ الصالحة لفن السياسة المعاصر، بل ودليلاً مفيداً بالنسبة إلى أولئك الذين يطمحون إلى تحديث اليمين في أوربا أيضاً.

تمتد جذور أكثرية الأحزاب اليمينية في أوربا إلى العرش أو المذبح (البلاط الملكي أو الكنيسة) أو إلى الاثنين معاً كما هو حال المحافظين في بريطانيا. رغم جميع جهودها التحديثية اللاحقة، ظلت أكثرية الأحزاب المحافظة في العالم القديم منطوية على عنصر ما قبل ديمقراطي في حامضها النووي. سواء أكان احتفاظاً بعقيدة اجتماعية كاثوليكية من جانب الديمقراطيين المسيحيين في كل من إيطاليا وألمانيا، أم تمسكاً بالآثار الموروثة عن النظام الملكي كما يفعل المحافظون البريطانيون والإسبان، هناك عنصر مما قبل الحداثة في بنية اليمين الأوربي.

ثمة جملة المآزق التي فرضتها أحداث ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين على يمين القارة الأوربية، تعقّد الصورة. فالدور الذي اضطلع به حكام تسلطيون محافظون في تيسير صعود الفاشية، أو في التعاون مع النازية في كل من ألمانيا، إيطاليا، اسبانيا، فرنسا، والأراضي المنخفضة، يطرح أسئلة صعبة. ما زالت مواقف

اليمين المتباينة في فرنسا من حكومة فيشي تؤثر في السياسة الحالية، كما نستطيع أن نرى من طبيعة الانقسام بين الديغوليين واللوبينيين (أتباع لوبين). وهذا الانشقاق لا يزيد الصدوع الحاصلة في اليمين الفرنسي إلا تعقيداً، وهي صدوع وصراعات حول مسألة المشروعية التي تعود إلى عصر الثورات. طالما عشش في اليمين الفرنسي نمط تفكير معاد للتنوير، نمط تفكير كان له أثر عميق وخبيث أو مشؤوم في قطاعات واسعة من التيار المحافظ في القارة الأوربية. أما اليمين الأمريكي، ولاسيما المحافظون الجدد، فليس، على النقيض من ذلك، مكبلاً بالطريقة ذاتها. ومع أن هناك عناصر مماثلة في اليمين الأمريكي – ولاسيما من يعدون أنفسهم محافظين قدامى (من العصر الحجري) ويعارضون المحافظين الجدد، ومن يرتابون إزاء أي تطور اجتماعي منذ النهضة وأي تغيير سياسي منذ سقوط الاتحاد – يبقى المزاج العام السائد في نمط التفكير المحافظ الأمريكي مستنداً إلى الإيمان بقيم ديمقراطية، جمهورية. شهد المحافظون الأمريكيون وما زالوا يشهدون اختلافات عميقة وحيوية حول ميزان القوة داخل النظام الاتحادي غير أن هناك ثقة غريزية بسيادة الشعب، وهي ثقة ذات جذور أعمق مما هي في قطاعات كثيرة من اليمين الأوربي. يظل التفاؤل بقدرة الإنسان هو الموقف المحافظ السائد في أمريكا، أما في أوربا فإن القَدَرية هي التي تحكم النظرة إلى حال البشر.

ومثل هذه النظرة القَدَرية تشكل عبئاً متزايد الثقل على كاهل اليمين الأوربي. تعرض الإذعان للعديد من المؤسسات التي أسبغت صفة الشرعية على اليمين للتلاشي السريع خلال السنوات العشرين الأخيرة. فالكنيسة، العائلة، والنخب الاجتماعية التقليدية لم تعد تمارس النفوذ الذي كانت تتمتع به قبل جيل واحد فقط. أدى انهيار النظام الشيوعي أيضاً إلى إضعاف لحمة التماسك لدى اليمين الأوربي، حارماً إياه من التهديد الذي كان يحشر التقليديين والعناصر الأكثر ليبرالية تحت مظلة واحدة.

كثيرون من اليمين البريطاني سارعوا إلى ملء الفضاء الذي كان مشغولاً بيقينيات قديمة، بمخاوف جديدة وخصومات تمت إعادة إيقاد نارها. من المدهش أن

تجمع المحافظين البريطانيين دائب على الأفول منذ 1990 وقد ظلت لهجة كلامهم منذ ذلك التاريخ مشحونة عموماً بالشكوى والحقد. فكل من الوسطية البائخة والخائبة لجون ميجر John Major وتجارة الرعب الكلبية التي احترفتها الديلي ميل أخفقتا في تزويد المحافظين البريطانيين برؤيا دافئة، جذابة، ملهمة، وقوية. إن اليمين البريطاني بحاجة إلى تحديث نظريتها وممارستها، ولاسيما إلى تطوير رد مقنع على جملة الأسئلة التي يطرحها مجتمع أغنى تنوعاً وأكثر تطلباً. من شأن المحافظة الجديدة أن تنطوي على قيمة لا تُقَدَّر بثمن في هذه العملية. فنزعتها التفاؤلية واليسر الذي يسم تهليل المحافظين الجدد لمجتمع مؤلف من مستهلكين حديثين، يستطيعان أن يمكّنا المحافظين البريطانيين من التغير.

تمثل أحد نجاحات اليمين في بريطانيا خلال السنوات العشرين الأخيرة بالتحرير الاقتصادي لملايين العمال ممن باتوا الآن متوفرين على الثروة، ومتمتعين بالثقة الذاتية غير الملتبسة، حتى يسيروا في الطريق التي اعتمدها المستهلكون الأمريكيون منذ سنوات. باتت الأذواق ديمقراطية، وكما نستطيع أن نلاحظ في تنامي أعداد التلفزيونات الفضائية، امتلاك السيارات، والإنفاق على تحسين أحوال البيوت، فإن الذوق الديمقراطي هو ذوق أطلسي تأكيداً من حيث الشكل.

من بواعث الأسف لدى الكثير من المحافظين البريطانيين والأوربيين التقليديين أن الثروة الشخصية المتنامية لدى العمال قد أفضت إلى زيادة الإنفاق على السلع والخدمات التي يعدونها نتاجات مبتذلة أفرزتها الثقافة الأمريكية. ولكن أي يمين بعيد النظر لن يتردد في الترحيب برسوخ الذوق الشعبي في الطعام، في الملبس، وفي أسباب الترفيه، على أنه توبيخ لطهرية اليسار المتجهمة.

إن تفاؤل المحافظة الجديدة وتطوره متواكباً مع إلباس الذوق ثوباً ديمقراطياً أمريكياً خاصاً يمكنانها من مساعدة البريطانيين والأوربيين على اجتراح سياسة حصيفة تناسب العصر.

لأن كثيرين من المحافظين الجدد بدؤوا حياتهم في صفوف اليسار المفعم بالأمل ثم ما لبثوا أن هاجروا إلى مواقع اليمين، نجدهم متوفرين على نوع غريزي من الفهم للحاجة إلى الوعد والرؤيا في السياسة الحديثة. يدرك المحافظون الجدد، في حين كثيرين من المحافظين يخفقون في إدراك، سبب بقاء كل من جي. إف. كي JFK (كندي) أو كلمنت آتليClement Attlee في خانة الأبطال الشعبيين. إنهم يدركون أن مفتاح السياسة الحديثة هو القدرة على منح الأمة إحساساً بوجود هدف مشترك مفعم بنبل الفكر وكرم الروح. إن النقطة التي يفترق عندها المحافظون الجدد عن اليسار هي نقطة الرصد التي تمكن الأوائل من إدراك الأخطار الكامنة في النزعة الطوباوية ومن امتلاك التصميم على عدم السماح بإعادة صياغة الطبيعة الإنسانية وفقاً لرؤى وأحلام مفرطة في عظمتها وجلالها. إلا أن المحافظين الجدد يعلمون أن اليمين سيخسر، وبجدارة، إذا أخفق في إضفاء إحساس بهدف قومي نبيل على السياسة وبقي حاصراً مناشدته إما بالمصلحة الأنانية الاقتصادية أو بحُزْمة من الهموم القطاعية الضيقة.

إن شرط مناشدة الغرائز الأفضل لدى البشر واضح وضوح الشمس، بطبيعة الحال، في ميدان السياسة الخارجية المحافظة الجديدة. فالمحافظون الجدد يدركون أن السياسة الخارجية، في أي دولة حديثة، لم تعد مسألة تخص نخباً عاكفة على احتساب المصالح، بل هي عائدة إلى أنظمة ديمقراطية ملتزمة بقضايا. لا بد من كسب التأييد للسياسة الخارجية، ومن صيانة هذا التأييد، عن طريق صياغة رؤيا فن إدارة السياسة والحكم وتنفيذه ببراعة.

مع اعتراف المحافظين الجدد بأن على القادة أن يكونوا مؤهلين للوصول إلى قلوب الأمة جنباً إلى جنب مع عقولها حين يكون الأمر متعلقاً بالسياسة الخارجية، فإن نفاذ البصيرة لا يقف عند هذا الحد. فالمحافظون الجدد يسلمون أيضاً بأن الإيمان بالتدبير الجماعي، في ظل المجتمعات الديمقراطية الحديثة، هو أمر أكثر من مسألة حساب الربح من جانب الأطراف المستفيدة. ثمة نُبل في مجتمع يسعى إلى نشر المكاسب على أوسع نطاق ممكن. ذلك هو ما يجعل المحافظين الجدد يؤمنون

غريزياً بحسنات الحكم القوي بمقدار ما يسلمون بأهمية نظام الإدارة المحدود. والأمران مترابطان بطبيعة الحال لأن مرجعية الحكم تبقى متوقفة على تجنب التدخل الحكومي المفرط. غير أن عاملاً آخر يلقي بثقله في نمط تفكير المحافظين الجدد.

كان محافظون جدد من نمط [عضو مجلس الشيوخ النيويوركي] دانييل باتريك موينهان أصحاب الأصوات الطليعية التي سلطت الضوء على احتمال تحول نظام الرفاه إلى عامل حت واهتراء لتلك المواصفات التي تشكل ركيزة أي مجتمع معافى وسليم. فتأسيس البيليك إنترست على يد إرفنغ كرستول ودانييل بل Daniel Bell في الستينيات ما لبث أن قاد إلى مراجعة جذرية لدولة الرفاه وإلى وضع حدود لنموها. أدرك المحافظون الجدد أن أسلم طرق الخروج من أَسْر الفقر بالنسبة إلى أي مواطن تمر عبر غرس جملة من الفضائل مثل الحصافة، العمل الدؤوب، الإخلاص الزوجي، والأمانة في المعاملات الاجتماعية. كانت قابلية أي دولة رفاه تقليدية لتقويض تلك الفضائل – عن طريق دعم الكسل مالياً، تبرئة الناس من عجزهم الخاص، استحداث حوافز شاذة ناسفة لاستقرار العائلة – مصدر قلق أوائل المحافظين الجدد. وإصلاح سياسة الرفاه في التسعينيات، في كل من أمريكا وبريطانيا، يعكس جوهر نمط التفكير لدى المحافظين الجدد. وبتبنيهم لتلك الإصلاحات التحق المحافظون الجدد بركب تطوير خطط وسياسات جديدة حول الجريمة والسلوك المعادي للمجتمع، خطط وسياسات رامية إلى تناول هذه المشكلات ومعالجتها من جذورها. لقد انطوى عمل تشارلز موراي وجيمس كيو. ولسُن على التأثير في صانعي القرار السياسي وصولاً إلى العاملين الميدانيين من أمثال رودي جيولياني، مايكل هوارد، وفرانك فيلدFrank Field، مع المساهمة في إحداث انعطاف في اتجاه الموجة بعد سنوات من الاتحاد الليبرالي بالأعذار المبررة للسلوك الإجرامي.

إن تأكيد المحافظين الجدد للثقافة السياسية التي تحض على الفضيلة يعكس الآلية الجوهرية الكامنة في صلب نمط تفكير المحافظين الجدد. من جهة

يحرص المحافظون الجدد على التناغم مع متطلبات الحداثة وعلى التلاؤم مع الثقافة الديمقراطية الجماهيرية. غير أنهم يعلمون أيضا، من جهة ثانية، أن أ ي مجتمع حديث ناجح يستند إلى مواطنين حاصلين ومحافظين على فضائل استنبطها أكثر المفكرين السياسيين عمقاً في التاريخ. مازال أفضل سبل فهم وحكم العالم الجديد الذي نعيش فيه الآن جميعاً هو، بنظر المحافظين الجدد، الالتزام الصارم بفكر كُتاب ينتمون إلى تراث محافظ واضح. تتضافر كتابات أرسطوطاليس عما يصنع مواطناً صالحاً وكياناً سياسياً مستقراً، أفكار توسيديدس عن سياسة القوة وفن الحكم، ورؤى مفكري النهضة الذين كانوا يعدون «الفضائل الجمهورية» لروما القديمة جديرة بالتكرار، لإغناء الذخر الفكري للمحافظين الجدد، مثلها مثل دروس المدنية والتحضر المتجذرة في معشوقة إرفنغ كرستول جين أوستن وجملة الملاحظات حول الديمقراطية نفسها التي أطلقها الكسيس دوتوكفيل للمرة الأولى.

تبقى القدرة على تحقيق التوازن بين دروس التاريخ ومتطلبات العصر، على استخلاص العبر من الماضي حول الطبيعة الإنسانية غير المتغيرة، والمبادرة من ثم إلى تطبيقها ببراعة على الأنظمة الديمقراطية الشعبية الحديثة، تبقى مثل هذه القدرة كامنة في صلب المحافظة الجديدة. فمجرد إدراك مدى فرادة وقيمة ديمقراطياتنا الليبرالية الراهنة تاريخياً، يشحن المحافظين الجدد تصميماً على الدفاع عنها. مثل ذلك التصميم ليس جلياً دائماً لدى مفكرين وممارسين آخرين على الصعيد السياسي. تمتع المحافظون الجدد بفهم أكثر دقة ونفاذاً لمخاطر الشيوعية مقارنة بأكثرية المحافظين في عقود الستينيات، السبعينيات والثمانينيات، وهم يتمتعون الآن بإحساس أكثر حدة فيما يخص جملة الأخطار الكامنة في الإرهاب الأصولي الإسلامي. بمقدور مجتمعات مثل مجتمعنا في بريطانيا أن تحقق قدراً أكبر من النجاح عبر اعتماد صرامة المحافظين الجدد على صعيد التنبه إلى التهديدات التي نواجهها راهناً.

ثمة وجه آخر للمحافظة الجديدة، وجه يتعين على أي يمين أوربي حديث أن يقلده – أعني وجهها المتمثل بالقدرة على الاستيعاب، على الاحتضان، على الشمول.

من المدهش أن أكثر كبار المفكرين المحافظين الجدد لا ينحدرون من تلك الجماعات التي كانت تقليدياً ترفد حزب الجمهوريين في الولايات المتحدة. قام اليمين في أمريكا تقليدياً على عنصر البروتستانت الآنجلو – ساكسون من البيض على المستوى القيادي. إلا أن قادة الفكر المحافظ الجديد يميلون إلى ألا يكونوا من الواصب WASP. إنهم في الغالب يهود مثل كرستول وبودهورتز، أو كاثوليك مثل جورج فيغل، دانييل باتريك موينهان، رتشارد جون نيوهاس، ومايكل نوفاك. نظراً لمجيئهم من جماعات درجت تقليدياً على تأييد الديمقراطيين، فإن المحافظين الجدد قد نفخوا الروح من جديد في النزعة الجمهورية وأعادوا تكييفها بما ينسجم مع أمريكا متزايدة التنوع باطراد. يستطيع اليمين الأوربي، الذي وجد نفسه مؤخراً في مواجهة مشكلة التكيف مع التنوع الاجتماعي، أن يتعلم من تجربة اليمين الأمريكي الذي نجح في التسامي على الدوائر السياسية التقليدية عبر مناشدة قيم مشتركة.

هناك موضوع آخر يمكن للأوربيين أن يتعلموه من المحافظين الجدد – أعني أهمية النمو الاقتصادي. فمن كتابات إرون ستلزر إلى سياسات رونالد ريغان وخططه، ثمة توجه نحو النمو الاقتصادي يشكل حجر زاوية في تفكير المحافظين الجدد السياسي. بوصفها فلسفة سياسية متناغمة مع عصرنا الديمقراطي، تعترف المحافظة الجديدة، غريزياً، بالأهمية التي يعلقها المواطنون الحديثون على تحقيق النمو وتستجيب بدفء لتطلعات معظم الناخبين الحالمين بإغناء حيواتهم [انظر مقالة كارلين باومان، المحرر]. فيما يكون المحافظون الأوربيون ميالين إلى الاكتفاء إما بالحماية الاقتصادية أو بالاستقرار السعري البسيط، نجد المحافظين الجدد متمتعين بنظرة تتجاوز مثل هذه الحسابات ذات التوجه التجاري وتخاطب أمنيات جماهير المواطنين. ونظراً للحالة البائسة التي وقعت فيها الاقتصادات الأوربية – القارية، بأكثريتها، في فخ اليورو، فإن وسيلةً ترسخ الحماية وتؤلِّه استقرار الأسعار، وهما من حسنات السياسة المؤيدة للنمو، قد لا تكون بحاجة إلى تأكيد بالنسبة إلى اليمين الأوربي.

حقاً، ثمة أشياء كثيرة، وكثيرة جداً، يستطيع المحافظون الأوربيون، والبريطانيون أن يتعلموها من أي حركة محافظة تكون حديثة، في حين أنها تعد موروثة عن الماضي؛ من أي حركة تكون واثقة من نفسها فكرياً، في حين أنها تُعد هامشية قاحلة؛ من أي حركة تزخر بالتفاؤل والرؤيا، في حين أنها تُعد أصواتاً للخوف والريبة الكلبية؛ وقبل كل شيء من أي حركة تكون مفعمة بالحياة في التصدي لجملة تحديات عصرنا الكبرى في حين أن كثيرين في أوربا يفضلون عزلة الجُبْن وهزيمة الذات.

بالنسبة إلى بريطانيا خصوصاً، تعني المحافظة الجديدة استعادة الأفضل، الأكثر تفاؤلاً، الأقوى التزاماً، والأوسع انفتاحاً من تراثنا المحافظ الخاص بنا. لا بد للحماسة التي تميز شجب اليسار المعاصر في بريطانيا للمحافظة الجديدة من أن يدفع كل محافظ بريطاني إلى التساؤل عما يجعل الخصوم السياسيين راغبين في إبعاد المحافظين عن الفلسفة. ألا تعكس لغتُهم قلقَهم الشديد من احتمال صيرورة المحافظة البريطانية سليمة، حيوية، شعبية، وقوية مثل نظيرتها الأمريكية؟ أولا ينبغي لذلك أن يكون شيئاً يتوق إليه أفضل من في صف المحافظة البريطانية؟